المضامين العقدية والهوية المذهبية
في لفائف البحر الميت

عبد الرحيم حيمد

سياق الصدفة : الطريق إلى لفائف البحر الميت

الزمن : ربيع سنة 1947 – المكان : شرق بلاد فلسطين، قرب الحدود الأردنية اليوم، على بعد اثني عشر كيلومترا إلى الجنوب من مدينة **أريحا** إلى الضفاف الشمالية للبحر الميت. في هذا المكان الذي عرف بوجود خرائب عدة كان الراعي **محمد الذيب** من بدو المنطقة يبحث عن معزة من القطيع الذي كان مكلفا بحراسته. هناك اكتشف **الذيب** جرارا تحتوي لفائف رق وبرديات، أثبتت الدراسات اللاحقة أنها تعود لطائفة عاشت هناك بين سنتي 250 ق.م. و70 م. وكان ذاك، بداية الكشف عما سمي بلفائف البحر الميت موضوع هذا العرض.

خزائن قمران : جرد بالمحتويات

منذ أن تسلل **محمد الذيب** إلى المغارة الأولى من مغارات **قمران**، في هذه اللحظة، وحتى ربيع سنة 1958م، سنة ختم التنقيب بهذه الفضاءات، تم الكشف عن إحدى عشر مغارة ضمت خزائن من مخطوطات وخزفيات ومسكوكات، أهمها تلك التي عثر عليها في المغارات الأولى والرابعة والحادية عشرة. ويلاحظ أن سبع مغارات من الإحدى عشر المذكورة تقع جميعها في **قمران** على ضفة الوادي، أما الأربعة الباقية فموقعها في الشمال، لا تبعد عن نظيرتها في قمران سوى حوالي ميل

ونصف. واحتوت المغارات جميعها ما يناهز ستمائة مخطوط، بعضها تام غير ناقص، وبعضها نتف وشذرات أتت عوامل الفناء على معظمها.

مثلت أسفار **العهد العتيق** ربع ما عثر عليه من مخطوطات. وضمت كل الأسفار، عدا سفر إستير، كما احتوت هذه الخزائن أسفارا من تلك التي تبنتها الرواية السبعينية : **سفر طوبيا** ، **وسفر سيراسيد** ، **ورسالة إرميا**، وهي التي تبنتها لاحقا **الفولكاتا**[1] تحت الإسم المنحول **سفر باروخ**. وضمت الخزائن أيضا أسفار **الأبوكريفا**[2] بالإضافة إلى مصنفات ذات طبيعة سجالية منافحة عن مذهب أهل **قمران**، منها على وجه الخصوص **شرح سفر حبقوق**. وعكست لفائف أخرى انشغال أصحابها بموضوعات قيامية مختلفة تضمنت معلومات عن تنظيم طائفة **قمران**، والتراتبية التي حكمت أعضاء الجامعة. في مقدمة هذه المخطوطات :

1- لفيفة نظام السلوك،

2- نظام حرب أبناء النور ضد أبناء الظلمات،

3- مصنف دمشق؛ وله أهمية خاصة، إذ لم يعثر سوى على شذرات منه بعضها نصوص مطولة، وأخرى لا تتعدى النتف الوجيزة. وردت جميعها في تسع مخطوطات. وهذا سفر تبين لاحقا أنه السفر ذاته الذي عثر عليه سنة 1897م **سليمان سستر في جنيزة القاهرة**، ونشره سنة 1910م.

لفائف أسفار العهد القديم

تمثل لفائف أسفار **العهد العتيق** التي ضمتها خزائن مغارات **قمران** شواهد بالغة الأهمية في نقد نص الكتاب المقدس. فمن المعلوم أن النص المتداول اليوم هو ثمرة

(1) الفولكاتا، **Vulgata**، هي الترجمة اللاتينية للتوراة، ويرجع وضع نواتها الأولى إلى **أوريجين** (185/ 235م). وقد خضعت هذه الترجمة التي تبنتها الكنيسة إلى مراجعات عدة خلال العصر الوسيط، انظر بهذا الصدد :

- Samuel Berger : *"Histoire de la Vulgate pendant les premiers siècles du Moyen Age"* ; Nancy 1893.

(2) تنتمي «الأبوكريفا» : **Apocryphes** إلى الأدب التوراتي، بيد أنه لم يُعترف بشرعيتها في إطار أسفار العهد القديم العبرية. ويسمي البروتستانت بالأبوكريفا كل الأسفار الملحقة بالعهد القديم في صيغته السبعينية، أي الترجمة اليونانية لهذا العهد. وتعتبر أسفار الأبوكريفا أسفارا منتحَلة في منظور=

جهود الأحبار الربِّيين[3] الممتدة من القرن السادس حتى غاية القرن العاشر الميلادي. جهود رسخت بقيد الشكل النص الرسمي للأسفار. ولذلك فالنص المروي اليوم هو **نص علماء الماسورا**[4]؛ (توجد أقدم نسخة منه اليوم في خزانة بطرسبورغ، وتعود إلى سنة 895م). ولذلك فلفائف **قمران** التوراتية سابقة فعلا عن نص **الماسورا** المعيار. ومن هنا أهمية الاكتشاف. لا يجب أن يغرب على البال أن روايات أخرى قدر لها أن تستمر إلى زمننا اليوم، منها نص **أهل السامرة** المعتدين بأسفار التوراة الخمسة لاغير، السابق بدوره عن رواية **علماء الماسورا**. ورواية السامريين مباينة في نقط عدة للنص المعيار. يضاف إلى هذه الرواية الرواية الأسكندرانية المعروفة **بالتوراة السبعينية**، أو الترجمة اليونانية للعهد القديم المنجزة في النصف الأول من القرن الثالث ق.م. على عهد **بطليموس الثاني وفيلاديلف**. وهي رواية تضمنت، بالإضافة إلى الأسفار التي توردها رواية **علماء الماسورا**، أسفارا أخرى هي **الأبوكريفا**. وقد أثبت الفحص مباينة النص السبعيني أيضا في جوانب عدة لنص رواية الماسورا؛ بل إن الدارسين يجزمون باستناد المترجمين الأسكندارنيين إلى تقليد مخالف في الرواية التي اعتمدوها في ترجمتهم. ولعل ما يدفع إلى الدهشة والتساؤل بصدد خصائص لفائف **العهد العتيق** القمرانية تضمنها شواهد من الروايات المذكورة أعلاه. لا يتعلق الأمر بتميز كل لفيفة على حدة بنهج رواية واحدة من الروايات الثلاث؛ بل إن اللفيفة الواحدة تتضمن شواهد من الروايات الثلاث في آن واحد؛ إلى جانب خصائص يمكن اعتبارها وقفا على لفائف **قمران**. ولذلك كتب **Dupont Summer** قائلا بخصوص هذه الوضعية المعقدة، التي وجد الدارسون أنفسهم أمامها :

=اليهودية الرّبية. ومن أهم نصوصها : رؤيا باروخ القيامية، وسفر أخينوخ، وسفر المقابيين الأول والثاني، ورؤيا إشعيا، بالإضافة إلى ثمانية عشر مزمورا من مزامير داود الواردة فقط في «الترجمة السبعينية»، ومنها كذلك وصية الأسباط.

(3) الربِّيون أو الربّانيون : «...وهم أحبار اليهود الذين اتخذوا لهم بجانب التوراة، كتب التلمود وشروحه أساسا للديانة والشريعة». د. أحمد شحلان : «من الفكر الفلسفي اليهودي العربي أبو عمران موسى بن ميمون وكتابه دلالة الحائرين». مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس. العدد الخامس والسادس، 1979. ص : 1 — 23.

(4) «أصحاب الماسورة هم الذين وضعوا القواعد الأساسية لكتابة ونقط النص المقدس، وتناقلت الأجيال هذه القواعد بالتواتر إلى أن دونها لأول مرة علماء طبرية في المائة السادسة الميلادية ». د. أحمد شحلان : **«ابن رشد والفكر العبري الوسيط»**. مراكش 1999، ص. 121.

«إن الدراسة التي تفرض نفسها للتو بدأت معالمها في التحدد، وهي دراسة تتطلب تحليلا دقيقا ومطولا. لقد أصبحنا واعين بأن النصوص التوراتية المكتشفة في قمران، وإن لم تحمل تغييرات رئيسة بالمعنى الشامل في المفاهيم والمناهج المتداولة منذ مدة طويلة لدى المختصين النبهاء في نقد النص الديني، فإنها أمدتهم بمواد جديدة ذات قيمة لا تقدر، ستسعف في الدفع بتمتين أكبر للأبحاث، وجعلها أكثر دقة مما مضى[5]».

لفائف من نحاس في المغارة رقم 3q :

لوحان من نحاس عثر عليهما في هذه المغارة، نقش عليها بحرف عبري مربع نص بلائحة أسماء أماكن خبئ فيها كنز تقول اللفيفة إنه مكون من حوالي مائة وستين طنا من الذهب والفضة، بالإضافة إلى لائحة بملابس كهنوتية، وأصص وعطور تتصل بالطقوس الدينية اليهودية.

النشرات النقدية والدراسات الأكاديمية :

يأتي في مقدمة المحققين الدارسين الذين ضربوا بالسهم الأوفر في مسار تحقيق لفائف قمران عالمان اثنان : العالم الجامعي الفرنسي **Summer A. Dupont** والأستاذ **R.P. De Vaux** اضطلع سومير بنشر مجموع اللفائف، عدا تلك المتضمنة لأسفار العهد العتيق. وأصدر تحقيقا ودراسة في مصنف يحمل عنوان : **les écrits esséniens découverts près de la mer morte.** ضمنه ترجمة كاملة للفائف -غير التوراتية - وخريطتين مفصلتين حول مواقع المغارات، وفهارس، وكذا تعليقات وحواشي وتخريجات حول أهم القضايا التي تطرحها النصوص. ولذلك غدا هذا المصنف الحاوي للمتون مصدرا لاغنى عنه للمشتغل حول هذا الموضوع. كما أصدر المؤلف نفسه نشرة محققة لنص **سفر الأناشيد الحاسنية** ضمن مجموع لفائف **قمران.** عضد سومير نشرته النقدية بدراسة ذات منحى فيلولوجي، أصدرها مع النص الكامل للمتن في مجلة **Semitica**[6]. أما الدارس **R.P. De Vaux** فقد ترأس خلايا التحقيق

(5) A.Dupont Summer : *"Les écrits esséniens découverts prés de la mer morte"*. Payot .1959, p.49.

(6) العدد السابع، سنة 1959.

سنوات عدة، ساهم فيها بالقسط الأوفر في إخراج الكثير من نصوص هذه اللفائف. أصدر سنة 1959 مجموعا عنونه : **"L'Archéologie et les manuscrits de la mer morte"**(7).

وقد أعيد طبع الكتاب في حلة إنجليزية مزيدة ومنقحة، تضمنت ما وثقه **دي فو** من صور وخزفيات ومسكوكات. وهي النشرة المعنونة بـ :

"Archaeology and the Dead Sea Scrolls"

وقد أبطأ اجتياح إسرائيل للقدس والضفة الغربية من عمل التحقيق. وأدى الموت المفاجئ **لدي فو** إلى تعثر عمل خلايا البحث التي كان يرأسها؛ بيد أن النواة التي تمكن هذا العالم، تحت مظلة أردنية، وكذا بفضل جهود جامعة أكسفورد، من الاستمرار في العمل المنقب والمحقق بإصدارات ظلت متواصلة طيلة نصف قرن تقريبا بعنوان ثابت ورئيس : **Discovries in the Judaean Desert** وهي إصدارات، توالى فيها تحقيق جل مخطوطات **وادي مربعات وخربة ميراد**. وتمكن القائمون عليها خلال السنوات الأخيرة في القرن الماضي من الإحاطة بمجموع المخطوطات، وإصدارها في نشرات نقدية.

وقد صدر بموازاة ذلك التحقيق الكامل لتسع لفائف نشرت في الولايات المتحدة تحت إشراف **M. Burrows** بمساعدة **J.C. Treur** و **W. Brownlee**.

وجاء عمل هذا الفريق في مجلدين يحملان عنوانا رئيسا **The dead Sea Scrolles of St Mark's Monastery** وعنوانين فرعيين. فقد حمل المجلد الأول العنوان **The Isaih Manuscript and the Habkkuk Commentary**(8) أما المجلد الثاني فقد صدر بعنوان :

Plates and Transcription of The Manual of Discripline(9)

ونشر **E. L. Sukenik** مضامين ثلاث لفائف تضمنت **سفر يشوع وسفر قواعد الحرب لدى أبناء النور** وكذا **سفر الأناشيد**. بيد أن الثغرات الكبرى التي شابت تحقيق **سوكنيك** أجبرت المتخصصين على إعادة إصدار جديد محقق، تصدى لإنجازه

---

(7) The Schweich lectures of the British Academy 1959.
(8) New Haven 1950.
(9) New haven 1952.

N. Avigdor الذي قدم لهذه اللفائف الثلاث بدراسة مستفيضة نشرها في مجموع سنة 1954م. دعاه **أوتصار هاميكلوت هاكينيزوت شبيد هالأونيفرستا هاعفريت**[10].

وأعقب **أبي كدور**، بمساعدة **ي. يادين**، عمله المذكور بمصنف درس فيه واصفا ومحللا للفائف عدة جعل لها عنوانا **Agenis Apocryph on A scroll from WildernEss of judea**[11].

توجت هذه الجهود وغيرها بنشر آخر ماتبقى من هذه المخطوطات في سنة 2002 بصدور المجلد التاسع والثلاثين من السلسلة الأكاديمية التي تصدرها **جامعة أكسفورد**. وبذلك أسدل الستار جزئيا عن جهود دامت نصف قرن، وشابت مراحل التحقيق والتنقيب خلالها مشاكل مختلفة، ارتقى بعضها إلى فضائح، كان أهمها اختفاء وثائق وكذا قطع نقدية من الأرشيف الذي جمعه ووثقه **دي فو**.

في الموضوعات :

يبين الجرد الأولي لفهارس **لفائف قمران** أن عصب المذهب فيها مستند جملة وتفصيلا للعقائد الرئيسة في **العهد القديم**. بيد أن تطوير موضوعات محددة، والتركيز على جوانب منها، وتغييب أخرى يمثل مرآة تفاعل أهل هذه الخزائن مع إكراهات زمنهم، عشية ظهور النصرانية، وتأصل اليهودية الربية من خلال سلفها الفريسي المباشر. وتثير القراءة والفحص الأولين لهذه الموضوعات لغاية الآن نقاشات يلتبس فيها الذاتي بالموضوعي. وتتجاذب مثيريها أطاريح عقدية مختلفة ونظريات شتى حول تاريخ الأديان والعلم بها. في مقدمة مكونات المذهب العقدي في هذه المخطوطات موضوعات كبرى يمكن إجمالها كالتالي :

الموضوعة النواة : اقتناع راسخ لدى أهل قمران بأنها طائفة يوحى لها، وتكشف لها الأسرار في زمن على مشارف نهاية العالم وبدء زمن قيامي.

الموضوعات المعضدة :

– الخير والشر روحان متصارعان،

---

(10) القدس 1954.

(11) القدس 1956.

– موضوعة الاختيار الإلهي أو انتصار لأبناء النور،

– الثواب والعقاب،

– موضوعة المسيحانية.

– **الموضوعة النواة** : تقوم العناصر المذهبية في **لفائف قمران** على مبدأ يعتقد بتمتع أبناء الطائفة بميثاق رباني يتجسد في العهد الإلهي للحبر رئيس الطائفة بكشف الوحي، وتعريف الأتباع بأسرار النصوص المقدسة. وهو وحي يُتلقى ليشرع بوابة الخلاص وطريق النجاة. ولذلك تفصح اللفائف جميعها عن صرح مذهبي عام، حجر الركن فيه الأمل المسيحاني المبشر بمجئ المخلص، المسيح بن داود؛ ومنتهاه إقامة مملكة الله على الأرض بعد محق الشر وأجناده.

– **الخير والشر** :

ينهض المذهب المنافح عنه في هذه اللفائف على ثنائية صراع الخير والشر ذات العمق الغنوصي الواضح. لا يتعلق الأمر هنا بثنائية تجرد هذين المفهومين أو تتعالى بهما؛ بل على العكس من ذلك، تقدم اللفائف الخير والشر باعتبارهما ملاكين أو روحين متصارعين على الدوام : ملاك الخير، أو أمير الأنوار في مقابل خصم لدود هو روح الشر، أو أمير الظلمات : بلي إل (בלי אל)، أو الشيطان . فهذان يرأسان ملائكة الخير والشر، ويحولان العالم إلى فضاء للحام والقتال. يفرقان بين بني البشر، ويحيلان الآدميين إلى قسيمين : أبناء النور وأبناء الظلمات. جاء في لفيفة **نظام السلوك** :

وجعل الرب لابن آدم ملاكين

يتقلب بينهما حتى تحين لحظة حلول الله [على الأرض]

هما ملاكا الحق والباطل.

من نبع النور مصدر الحق،

ومن الظلمات منبع الباطل.

لملاك الأنوار يد مبسوطة على أبناء العدل السائرين في دروب الضياء.

ولملاك الشر يد تعلو مملكة أبناء الباطل السائرين في مسالك الظلمة.

ملاك يغرر بأبناء العدل

فخطايا هؤلاء، وآثامهم،

تمردهم وعصيانهم،

من فعل مملكته.

كذا أمر الرب إلى نهاية الأزمان. فكل البلاء ولحظات الحزن

هي فعل ملاك الظلمات.

والأرواح السالكة في خدمته

تغوي أبناء النور بالسقوط على الدوام،

بيد أن رب بني إسرائيل، وملاك الحق

يهبان لنجدة أبناء النور[12].

وبين هذين الروحين يتقلب بنو البشر.

وبينهما ينقسمون فلولا من دور لدور .

وجزاء الأعمال رهن بأتباع أحد الدربين

ورهن بما يأتيه المرء في دنياه.

فالرب أوكل هذين الملاكين ببني البشر،

وجعل بينهما عداوة خالدة

---

(12) قواعد 3-18-25.

كره الحق ديدن الباطل، كره الباطل سبيل الحق.

حرب ضروس ولحام دائم

في ما يأتيانه،

فهما لا يسيران البتة في جوقة واحدة[13].

لا يفهم مما سبق أن هذين الروحين إلهان كما يتبادر إلى الذهن؛ بل هما ملاكان مسخران لما هما موكلان به. فاللفائف **القمرانية** غير التوراتية، وخاصة سفر **نظام السلوك** تصفهما بملاكين من خلق الباري الفرد، وأن المتعالي هو من جعل لهما هذه القوة، ومنحهما هذا السلطان :

أجل، هو من أبدع روحا النور والظلمة،

وعلى إبداعه ذاك أقام البرية.

وتوكيل الملاكين بالوجود، فتنة أو هداية، هو أداة في خدمة غايات إلهية نهايتها تمحيص الأخيار من الأشرار. ولذلك لا يتعلق الأمر هنا بثنائية أخلاقية ؛ بل بثنائية ذات أساس أنطولوجي يتصارع قطباها في مراتب الوجود، وفي عالم الإنسان بجزئياته المختلفة. ولما كان الباري مقدر تجاذب الإنسان بين هذين الملاكين، فهو وحده من يضع حدا للصراع بين الخير والشر، حين يأزف زمن حضوره، فيحل بالأرض نصيرا لأبناء النور :

فالرب بأسرار حكمته

قدر زمنا ينتهي فيه الباطل.

يستأصل الشر إلى الأبد،

وتحيا الحقيقة في العالم المتأوه اليوم في سبل الدنس،

وزمام سلطان الشر والباطل[14].

---

(13) المصدر نفسه : 4- 15-16.

(14) المصدر نفسه.

وتجمع اللفائف المتضمنة لهذا التصور أن نهاية الزمن الآزفة لحظة آنية سيشارك فيها أبناء النور جميعهم في حرب أخروية طاحنة؛ وتستنفر فيه جيوش الملائكة الخيرة ضد ملاك الشر وجنده.

موضوعة الاختيار الإلهي

يحكم تجنيد جيوش الشر والظلام قواعد اختيار ألوهية يختار الباري بمقتضاها جند الملائكة. وتوضح مقتطفات عدة من **مصنف دمشق** ومن لفيفة قواعد الحرب هذه الموضوعة في مخطوطات **قمران** :

في قلب كل آدمي رحى حرب بين الحق والباطل

فبين دربي الحكمة والجنون يسير بنوالبشر،

وبقدر نصيب الفرد من الحق والعدل يتحدد كرهه للباطل،

وبحسب نصيبه من الشر والدنس يتحدد كرهه للحقيقة،

فمن ينتصر للحق يجند إلى الأبد في جيش **بلي إل**[15]. أما المختارون من غير هؤلاء، فيمتحنون كرة أخرى باتباع هوى القلب، أو التمسك بسبل العهد؛ غير أن الرب وملاكه يأتيان لإنارة قلب ابن آدم وإعانته على تبين سبل العدل[16] وغرس خشية الرب في نفسه[17]. والعناية الإلهية تلك تجعل المؤمن موقنا بالنجاة، وتجعل قلبه يطفح ثقة بعهد الرب جاء في مخطوط قواعد الحرب :

إني امرؤ وإن أصبحت فريسة الرعب والهلع

ففي لجة الحزن، وغمر الأسى، أبارك الرب.

لأنه عظيم، أصلي له،

أتأمل قوته.

---

(15) المصدر نفسه : 4- 23-25.

(16) المصدر نفسه :3 - 24-25.

(17) المصدر نفسه : 2-3-4.

على نعمه معتمدي، أنا عالم أن بيده دينونة كل حي،

وأن أفعاله حق. وإذ يشتد بي الأسى أدعوه،

وحين يفرج كربتي أصيح ملء في فرحا[18].

الثواب والعقاب

تنبني موضوعة الجزاء في **لفائف قمران** على تصور غائي، يجعل الفعل الملائكي والبشري رهنا بنهاية زمن وجودى أرضي، يمحص فيه الرب البزر الخير عن الفاسد. وفيه ينتصر لأبناء النور، ويمحو أذى الشر. إنه زمن يحل فيه الرب على الأرض. ويشارك فيه المختارون الناجون من الأحياء، ومن الموتى المبعوثين، في حرب النهاية الفاصلة بين الحق والباطل. ويمنح الصالحون، آنئذ، الحياة الخالدة في النور السرمد؛ في حين يمحق، في واقعة الفصل تلك، أتباع **بلي إل**؛ ويرمى بهم في أخدود النار القاتل. وفي **لفيفة التبريكات** وصل مثير بين المسيح المنتظر وبناء مملكة المختارين :

ولأجل مباركة أمير الطائفة

يجدد الرب ميثاقه للأتباع

حتى يقيم مملكة شعبه [الباقية] إلى الأبد[19]

وفي إطار الموضوعة ذاتها يستلهم **«مصنف دمشق»** **سفر التثنية**، واعدا المختارين حياة أخروية مدتها ألف عام :

فهؤلاء السائرون في فرائض الكمال

المطيعون للأوامر جميعها

عهد الرب ضمان لهم أن يحيوا ألف جيل.

---

(18) المصدر نفسه : 10 15–17.

(19) **لفيفة التبريكات** : 7– 20-21.

وفي لفائف أخرى يتحول هذا الوعد من ألف جيل إلى آلاف الأجيال، بل إن اللفيفة المحتوية لشرح المزمور السابع والثلاثين تجعلها حياة أخروية خالدة إلى الأبد. وتعرض **لفيفة الأناشيد** معلومات ضافية ومفصلة عن أنواع الجزاء التي يلقاها المختارون والمنبوذون بعد انتصار ملاك الأنوار على ملاك الشر وجنده.

موضوعة المسيحانية

تحتل موضوعة المسيحانية حيزا هاما في **لفائف قمران**. وتشكل نسيجا معقدا من المكونات والعلائق التي تعسر الإحاطة بتفاصيلها المختلفة. فهذه موضوعة نمت وتطورت تحت ظروف وإكراهات الأحداث السياسية التي عرفتها بلاد فلسطين بين ق1. ق .م و1 بعده[20]. وقد تنبه الدارسون المحققون إلى اختلافات رئيسة بين اللفائف حول مفهوم المسيح. وهو اختلاف عكس في نظر المختصين تطور هذا المفهوم، إذ ورد في **قواعد الحرب** العبارة : «مجئ النبي، وممسوحي هارون وإسرائيل» ؛ ومعناه أن الأمر متعلق بأشخاص ثلاث هم النبي، ثم المسيح الكاهن، والمسيح الملك. (وقد ورد التصور ذاته في عبارة أخرى جاءت في **لفيفة تستمنيا**). والنبي المذكور، في سياق العبارتين، هو المبشر بمجئ المسيحين. وفي كتاب القواعد ما يفسر هذا التصور المسيحاني. فالقاعدة 2 11-21 تصف اجتماع مجلس الطائفة، والطعام الطقوسي في الزمن المسيحاني. وتتحدث عن الكاهن وعن مسيح بني إسرائيل . وهو ما تؤكده أيضا عبارات متفرقة في **لفيفة التبريكات**. ومهما يكن، فإن هؤلاء الشخوص ينتمون في التصور الذي تقدمه هذه اللفائف إلى الطائفة. وهم مسحاء يمثلون بيت القداسة المنحدر من نسل يعقوب ومن نسل هارون. ومنهم ينهض المسيح المخلص.

غير أن هذا التمييز الفاصل بين مسيحين أحدهما من بيت الكهنوت والآخر من بيت الملوكية، اختفى في لفائف أخرى، وخاصة في **مصنف دمشق** الذي لم يعد الحديث فيه عن مسحاء، بل عن مسيح واحد يتحد فيه شرفا الانتساب إلى يعقوب وهارون[21]. وهو تحول خضع لاحقا لتطور نظام الشرح المستجد لنصوص العهد

---

(20) E.M Laperrousaz: *"Les manuscrits de la mer morte"* ; Presse universitaire de France, N°953 Ed . 18, p.65.

(21) **مصنف دمشق** ألف 12 23- ، 1 وجاء 1 —10—11.

العتيق ، والذي مكن من تمتيع أبناء الطائفة جميعهم بامتيازات نسلي هارون ويعقوب، إذ تم منح المصطلحات : **كهنة ولاويون وأبناء صدوق** معاني جديدة، نزع بمقتضاها ميسم المرجعية القبلية عن هذه الاصطلاحات وغدا الاتباع مختارين شرفاء يلجون عهد الرب الجديد لأبنائه. ويخضعون لتراتبية تؤهل فئات الطائفة لتلقي أسرار الوحي المكشوفة لرئيسهم. وتبين نصوص محددة من **مصنف دمشق** محاولة بناء تأويل جديد لتراتبيات الكهنوت اليهودية. فعلى الرغم من كون هذه النصوص تتحدث عن بدهية الاعتراف بشرائع اللاويين، فإن المعنيين بهذه الشرائع لم يعودوا يميزون بأعدادهم أو بميزات معرفية ما، بل إن التوجه واضح في هذه النصوص نحو تجاهل الأمر بتنصيب الكاهن من سبط لاوي بن يعقوب.

وفي **لفيفة الأناشيد** استثمار للإيماءات التوراتية المسيحانية، وإسقاط واضح ومتعمد لمدلولاتها على أبناء الطائفة الداخلين في عهد جديد، يرث عهد الآباء . ذاك ما يرد في لفيفة **شرح سفر هوشع** المبشرة بزمن مسيحاني تحت إمرة ذرية داود، إذ يجعل الشارح من أبناء الطائفة الورثة الشرعيين وعد الرب. ولما كانت الطائفة تساس بعصا راع واحدة، وشخص فرد باحث عن الحقيقة قاد أتباعه إلى **قمران** كالنجمة الهادية إلى النجاة، فكذلك لن تشهد الأزمنة المسيحانية سوى هاد واحد ليس سوى أمير الطائفة الذي تتحقق على يده كل الآمال المسيحانية. وهذه المماهاة المركزية بين شيخ الطائفة وممسوح آل هارون ويعقوب تتضح أكثر في الألقاب التي تضفيها اللفائف على النبي المنتظر : فهو الأمير العادل، والمخلص، والمسيح، ومهلك الضالين. ومهمته ستتوج بانتصار الحقيقة بعد حرب يقود وقائعها، ويوجه أتباعه بالنفخ في بوق لسحق أتباع وجند **بلي إل** ملاك الشر.

هوية طائفة قمران

منذ أن شرع في فك ودراسة هذه اللفائف صدرت دراسات كثيرة تطرح أسئلة عميقة حول الجديد الذي تضفيه مضامينها إلى ما نعرفه عن الفترة المحصورة بين ق.2 ق.م والأول من بعده. فعتبة القرن الميلادي الأول هاته ممهورة بحدثين وسما تاريخ العصر الوسيط لاحقا، هما : ظهور النصرانية، ثم بروز اليهودية الربانية. في مقدمة الأسئلة التي فرضت الاكتشافات طرحها، السؤال حول أصحاب هذه

اللفـائـف من ساكنة **قمران**. وأسبـاب إخفـائهـم لمخطوطـاتهـم في هـذه المواقـع. والمتفحص لمعظم الدراسات بهذا الخصوص يدرك أن الآراء تكاد تجمع حول نسبة هذه الخزائن لطائفة **الحاسنيين**. انتهت إلى ذلك أبحاث **اليعازر سوكنيك** إثر الكشف في فضاء **قمران**، **وعين فسخا** منه على وجه التحديد على خزانات مائية، وقاعة فسيحة تبين أنها كانت خاصة بالكتبة أنفسهم، وكذا على قاعة للاجتماع، وأخرى لشعـائر النظـافة، بـالإضـافة إلى عـدة غـرف غير بعـيـدة عـن مـقبرة تـعضـد رأي **سوكنيك**[22]. وانضم إلى فرضية نسبة اللفائف إلى **الحاسنين** عالمان مؤرخان، آزرا الباحث المذكور. وارتبط اسمهما بفرضيته. إنهما المؤرخ الانجليزي **جون أليكرو** والمؤرخ الفرنسي الأستاذ بجامعة السوربون **Dupont Summer**. وعلى الرغم مما حظيت به، وما تزال فرضية ربط هذه اللفائف بالطائفة المذكورة، فإن أصواتا مفردة تعالت بالنقد والتجريح لأدلة القائمين على هذه النسبة، وامتدت لتكشف عن مؤديات وخلفيات القائلين بها.

في نسبة اللفائف إلى الحاسنيين : بناء الفرضية

نظرية الأصل الحاسيني في أبحاث سوكنيك ومن تابعه :

انبنت أطروحة **إليعازار سوكنيك** على اعتبار المغارات التي اكتشفت بها اللفائف خزانة للطائفة التي سكنت **قمران** واختار أصحابها أن يودعوا خزائنهم هاته في هذه المغارات حفظا لها من الضياع ومن التهديد الروماني. وقد تبين لـ**سوكنيك**، من خلال مخطوط مجموع لفيفة نظام السلوك، وكذا من طبيعة القواعد التي يتضمنها أنها لطائفة يهودية. واستنتج الباحث من نصوص لفيفة **مصنف دمشق** الذي عثر عليه قبل ذلك في **جنيزة القاهرة**، أن الطائفة المعنية هي **طائفة الحاسنيين**، التي تحدث عنها **فيلون الإسكندري**، **وبلين المؤرخ الروماني**، **ويوسف فلافيوس**. ولـقـد رأى بـعض الدارسين في هذا الربط تمحلا يلوي عنق الأدلة، ليدمر عن قصد أو غير قصد جوهر النصرانية، باعتبار أن مذهب **الحاسنيين** يكاد يضارع في كثير من عناصره بعض مانجده في النصرانية. أضف إلى ذلك اعتبار **سوكينيك** ومن تابعه، وخاصة **سومير**،

---

(22) «**מגלות גבירות**»، القدس 1948، الجزء الأول.

أن **يوحنا المعمدان** حاسيني النحلة، أثر بمذهبه ذاك على المسيح؛ بل واعتبار ما جاءت به النصرانية امتدادا لمذهب **الحاسنيين**.

وندرك اليوم أن هذه الآراء متعلقة في جوانب منها بخلفيات الدارسين ومنطلقاتهم. **فسكونيك وسومير**، وكثير ممن تابعهما مدينون برأيهم إلى أعلام البحث التاريخي في الأديان. ولذلك يلاحظ في دراساتهم تركيز أكبر على إغناء فرضيات هؤلاء دون اللجوء باستمرار إلى مقول النصوص؛ بل إن فرضية هذين المؤرخين مرتبطة بنظريات قبلها نحت المنحى ذاته. **فرينان** مافتئ يردد خلال القرن التاسع عشر جملته الشهيرة : «**ليست النصرانية سوى مذهب الحاسنيين الذي قدر له أن يلقى نجاحا موسعا**»[23].

وقد انتصر لهذا الرأي **إدوارد شوري** سنة 1921م؛ وأقام صرح نظرية موسعة له، قامت على القول تتلمذ المسيح **عيسى بن مريم** على أعلام المذهب الحاسيني في **قمران**[24].

في أعمال Dupont Summer :

وردت عناصر نظرية **Dupont Summer** المعتمدة على فرضية ربط لفائف **قمران** بالمذهب الحاسيني في مصنفات ثلاث سعت إلى تقديم أدلة نصية وأخرى تاريخية عن هذه النسبة، وفيها يرى المؤلف أن النصرانية مرتبطة بعقائدها وشعائرها بالحاسنيين، ومرتبطة، من خلال علاقة شخص المسيح نفسه، برئيس هذه الطائفة الذي يرد اسمه معرفا بشيخ العدل، شيخ يرجح أنه قضى تعذيبا خلال القرن الثاني قبل الميلاد. وفي نظر **سومير** فإن موضوعات عدة وردت في **لفيفة نظام السلوك** أدمجت في **الانجيل الرابع**، وعلى وجه الخصوص تلك المتعلقة بحرب أبناء النور ضد أبناء الظلام. فقد استثمر **بولس** نفس المفاهيم التي نجدها لدى **الحاسينين** كالخطيئة، والأسلحة الروحية، والنور والظلام، والخلاص.. وفي السياق ذاته اعتبر **سومير** أن **يوحنا المعمدان** تلقى هو أيضا التأثير نفسه. فالأخبار حول انحداره من اللاويين،

---

(23) A.D.Sommer: *"Les écrits esséniens découverts prés de la mer morte"*.
(24) Edward Schuré : *"Les grands initiés"*; dans Esquisse de l'histoire secrète des religions. Paris, 1921, pp.469-486.

واعتزاله الناس، وعيشه حياة زهد وفقر بقمران، وكذا ممارسته التعميد على ضفاف نهر الأردن، على غرار طقوس النظافة الحاسينية، تؤكد انتماءه لمذهب أهل قمران. فالكنيسة النصرانية – يقول سومير– متجذرة في عقائد الطائفة اليهودية الحاسينية بدرجة لم يكن أحد يعتقد أنها بهذا العمق»[25]؛ بل «لقد اقتبست الكنيسة – يضيف سومير – القسم الأكبر من قواعد التنظيم لدى الحاسنيين، ومن شعائرهم ومذاهبهم، وكذا من أنماط تفكيرهم زمن نماذج تصور الكمال الصوفي والأخلاقي»[26].

استنذ سومير إلى نصوص تاريخية أسعفته في وصل اللفائف بالحاسنيين. ويمكن إجمال أدلته، في هذا الإطار، بإيراد النصوص التي احتج بها :

النص الأول : لفيلون الاسكندري الذي عاش في مصر (30 ق م – 40 م)، لم يكن يعرف اللسان العبري، و لم يذهب يوما إلى بلاد فلسطين. وقد أشار إلى طائفة الحاسنيين بالقول : «الحاسنيون قوم عاشوا بفلسطين، في بلدات بعيدا عن أهل المدن». «و لم يكن أحد منهم يتخذ زوجة، ومارسوا الزراعة، ومنها كانوا يقيمون أودهم».

أما النص الثاني فهولبلين المؤرخ الروماني (المتوفي عام 79م). وقد أشار فيه إلى الحاسنيين؛ وأكد أنهم قطنوا المنطقة الأشد قساوة «في غرب البحر الميت.».. هناك سكن رجال تعبوا من الحياة، فقصدوا هذا المكان ليقضوا به بقية عمرهم، تحت ظلال النخيل، وفي طائفة لا نساء فيها، بعد أن رغبوا عن كل ما يتصل بالزهرة»[27].

النص الثالث ليوسف فلافيوس (ق. الأول الميلادي). ففي مصنف حرب اليهود ذكر للحاسنيين إلى جانب الفريسيين والصدوقيين. وفيه إشارة أيضا إلى زهدهم، وعزوف بعضهم عن الحياة الزوجية. وأكد فلافيوس أنهم لم يقطنوا مدينة بعينها، بل تفرقوا بين المدن، وعاشوا جماعات، ودأبوا على التنقل والسفر. وأورد المؤلف أيضا ممارسات هؤلاء، وقواعد الانتساب إلى طائفتهم؛ وفصل الحديث عن عقائدهم حول خلود الروح في العالم الأخروي»[28].

---

(25) المصدر نفسه. ص. 28.

(26) المصدر نفسه. ص. 0386.

(27) *"Histoire naturelle"*; I, 17.

(28) Flavius Josèphe : *Les juifs, Histoire ancienne des juifs, La guerre des juifs contre les Romains; autobiographie*. Paris 1968. p .557 et 707-713.

وجهت لفرضية نسبة لفائف **قمران** إلى طائفة **الحاسنيين** انتقادات صارمة؛ ذهبت أحيانا إلى حد الرفض لكل مابناه **سومير**، ومن حذا حذوه من الدارسين وهم كثر. عارض دراسات **سومير**، **وجون اليكرو** أركيولوجيون ومؤرخون وعلماء ساميات. نذكر من هؤلاء أعلاما مشهورين، **في مقدمتهم إدوارد دورم** المستشرق الفرنسي، والمؤرخ **جروم كركوبينو** المختص في تاريخ الرومان، **وروني دوسو**، **وأندري برووميلار بروس**، والعالم **دال مديكو** المستشرق والعالم المكتشف لأسرار **اللغة الحثية**؛ والذي تضمنت أعماله حول لفائف **قمران** نقدا لاذعا لفرضية النسبة إلى **الحاسنيين**.

قامت انتقادات الرافضين لما ذهب إليه سومير على فحص الأدلة التي استند إليها هذا الأخير في بنائه لفرضيته المذكورة. يمكن إجمال هذه الانتقادات فيما يلي :

1- إن المؤرخين الثلاثة الذين استند إلى نصوصهم حول الحاسنيين مختلفون حول عقائد هذه الطائفة، وحول مكان استيطانها. **ففيلون** يرى أن أفرادها مزارعون متفرقون بين البلدات الفلسطينية. أما **بلين** فيعتبر أنهم مجرد شيوخ شاؤوا أن يقضوا حياتهم بعيدا عن الناس. في حين أشار **فلافيوس** إلى هذه الطائفة، ومنهج عقيدتها، وسلوك أفرادها الزهدي؛ بيد أنه أكد تمزق أتباعها إلى جماعات سكنت مناطق مختلفة من بلاد فلسطين، وحده **بلين** أشار إلى استيطان **الحاسنيين** بالقرب من البحر الميت.

2- إجماع المؤرخين الثلاثة حول طبيعة حياة الزهد والتقشف التي سلكها **الحاسينيون**، وعزوفهم عن النساء والزواج. بيد أن **سومير** ومن حذا حذوه لم يفسر لِم ضمت مقبرة قمران حوالي ألف ومائة قبر، بها نسبة هامة من قبور الأطفال والنساء. ثم كيف يمكن الحديث عن زهد الطائفة وتقشفها في حين تشير اللفيفتان النحاسيتان إلى ثروة ضخمة من الذهب والفضة ؟

3- ولاحظ المنتقدون أيضا تذبذبا فيما أشار إليه **فلافيوس**؛ إذ يفهم من نص في «**حرب اليهود**» أن الحاسنيين مارسوا الزواج بينما تم التأكيد في كتاب «تاريخ اليهود» على أنهم حرموه تماما.

4- لم يرد أي ذكر للحاسنين في المخطوطات، فشرح حبقوق، ومنهاج قواعد السلوك خلو من ذكر هذا الإسم.

5- إن استناد **سومير** على **مصنف دمشق**، في وصله بين رئيس طائفة **الحاسنيين** و**شيخ العدل** الوارد اسمه في اللفائف، وهو الذي يجعل منه الدارس المسيحَ الأصلي، لا ينهض على دليل من داخل لفائف **قمران**؛ بل إن الأدلة المسوقة مأخوذ جلها من نسخة **جنيزة القاهرة** المشار إليها. وهي نسخة رفض مختصون القول بانتمائها للقرن الأول ق.م. فمنذ دراسات **زيتلان** فَضَّلَ كثيرون القول بنسبتها إلى القرن العاشر الميلادي وإلى طائفة القرائين بمصر[29].

6- إن الشك بهذا الخصوص يعظم حين نعلم أن نصوص العهد الجديد، وأسفار **الابوكريفا**، وكذا التلمود لم ترد فيها البتة أدنى إشارة، أو ذكر للحاسنيين. قادت هذه الانتقادات **ديل ميديكو** إلى الجزم برفض أطروحة النسبة إلى **الحاسنيين**، واعتبر آخرون هذه النسبة مجرد خرافة. بيد أن دارسين آخرين ساقوا فرضيات أخرى تدعو اليوم إلى التفكير وإعادة النظر فيما انتهى إليه سوميرومن حذا حذوه.

(29) Zeitlin. Jewish quarterly Review, 1926, p. 429-474.